

Vol 04 المجلد 04 Num 02 العدد 02	حفريات المعرفة Hafriyat Al- marefa	Issn : 2830-912X ديسمبر 2024
--	---	--

الرواية الفلسطينية كرد فعل مقاوم لسرديات الطمس الرمزي

قراءة في رواية "الشوك والقرنفل" يحى السنوار

The Palestinian Novel as a Resistant Reaction to Narratives of Symbolic
Erasure

A Reading of Yahya Sinwar's Novel "Thorns and Carnations"

طالبة الدكتوراه: ليندة بوذن

Ph.D. Student: Lynda Bouden

bouden-lynda@univ-eloued.dz

جامعة حمه لخضر الوادي - الجزائر

University of Hamma Lakhdar El Oued - Algeria

الملخص:

تتمثل المقاومة كشكل من أشكال الدفاع، دفاعاً يُبين خصوصيتها، فالمقاومة المسلحة تُبرز دفاعاً عن الأرض عبر السلاح، والمقاومة الأدبية التي تمثل دفاعاً عن الأرض عبر الكتابة، تشكل فيها اللغة هوية مستعادة والحكاية كذاكرة حية، لذا فقد تبنت الرواية الفلسطينية من الداخل والخارج مسؤوليتها في احتضان كل أشكال المقاومة، ممارسة لحقها الشرعي في الدفاع عن الأرض، فقد أنتجت أشكالاً حكاية متنوعة ومختلفة،

تنطلق من مرابض السلاح إلى استعادة الوجود الفلسطيني وإعادة تشكيل ذاكرته عبر محطات من تاريخه "النكبة، التهجير، المخيمات، المجازر" فانتقلت بذلك من منطق الحكاية إلى استغلال آليات الكتابة السردية وتفعيلها في إنتاج سرديات مضادة لخطابات الاحتلال التي باتت تشتغل على محو كل الأدوات المادية واللامادية التي تمثل أرض فلسطين لتصبح سلاحاً ثقافياً يرتهن لقوة الكلمة والتاريخ، والحقيقة المعاشة، ومنه تسجيلاً لذاكرة حية معبئة بوجع لا ينتهي ودم مراق منذ عقود طويلة.

تبياناً لما قيل، سنرصد في هذه المطوية مدى تمكن الرواية الفلسطينية من فرض نفسها كنوع مهم من أنواع المقاومة ألا وهي المقاومة الثقافية؟ وما مدى تفعيلها في آليات السرد وإلى أي مدى استطاعت أن تستعيد الوجود الفلسطيني الذي يتعرض للتغيب جراء السرد المضاد الذي تمارسه خطابات الاحتلال؟

الكلمات المفتاحية: الأدب المقاوم، الرواية الفلسطينية، الحو الرمزي، رواية الشوك والقرنفل.

Abstract:

Resistance, as a form of defense, manifests in unique ways. While armed resistance defends the land with weapons, literary resistance defends the land through writing, where language becomes a reclaimed identity and the story a living memory. Therefore, the Palestinian novel, both internally and in the diaspora, has taken on the responsibility of embracing all forms of resistance, exercising its legitimate right to defend the land. It has produced diverse narrative forms, moving from the trenches of armed struggle to reclaiming Palestinian existence and reshaping its memory through historical milestones: the Nakba, displacement, refugee camps, and massacres.

Thus, it transitioned from mere storytelling to utilizing narrative writing mechanisms, producing counter-narratives against the occupation's discourses, which attempt to erase all material and immaterial elements representing the land of Palestine. It became a cultural weapon relying on the power of the word, history, and lived reality, serving as a record of a living memory filled with endless pain and blood spilled over many decades.

To clarify this, this paper explores the extent to which the Palestinian novel has established itself as a crucial form of cultural resistance. It examines its narrative mechanisms and its ability to reclaim the Palestinian existence that is subjected to erasure by the counter-narratives of the occupation's discourse.

Keywords: Resistance Literature, Palestinian Novel, Symbolic Erasure, Thorns and Carnations.

مقدمة:

ظلت الرواية ردحاً من الزمن رديفاً للإنسان، تعبر عنه وعن همومه، وتحكي تجاربه، بل وانتقلت إلى أن توثق تاريخه وتُبصر مستقبله بعين فاحصة، تبعاً لمجريات الواقع المعاش الذي اتسم بنوع من التعقيد والضبابية، لما فيه من قضايا متشابكة، وطنية وقومية وحتى عالمية، فأضحت بذلك نموذجاً يمس مختلف القضايا الفكرية والواقعية والثقافية والاجتماعية، مساساً لا يعني التوثيق ولا يعني إيجاد الحلول لمختلف التعقيدات، وإنما تبحث في المجهول عن الإثارة والمساءلة، تخاطب بشيء من الحزم لغة التاريخ بوثائقه الرسمية، تحكي بكل سردية قيم الإنسان المنهارة وتندد بكل المظالم الذي يتعرض لها، وتستجلب عبرها مهنية المؤرخ، وتستفز عوالم

الأسطورة، وتغوص في أنهار التراث وأبحره، وتشاكل أسئلة الفلسفة، معبرة بكل ما سبق عن مقاومة الإنسان لكل ما ينغص حياته من مظالم معقدة.

يمكننا القول أن الرواية هي مقاومة الإنسان ليقى على قيد الحكي وعلى قيد الذاكرة، وتبقى فاصلاً لمحاولة طمسه، ونسيان أرضه، وأن كل المحاولات في جعله بلا ذاكرة تتناقل بين الأجيال، تُبدد في أول محاولة لكتابة رواية، إنها شاهدة عن التاريخ والذاكرة الجمعية، عن الوجود المعرض للتغيب والمعاناة، ما بقي الإنسان موكلاً بالحكاية، وهكذا كان ظهور الرواية الفلسطينية التي شهدت في بدايتها عدة مغيبات منها غياب أرضية ثقافية جاهزة، وعلى الرغم من ذلك، إلا أنها ظلت تجسد شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية عبر تحيينها لمشروع ثقافي موسع، مرهون إلى إعادة تشكيل الذاكرة الوطنية ومواجهة التغيب والطمس التي تقف خلفه خطابات الاحتلال، بالتركيز على مكونات الهوية الوطنية، كالثقافة والدين واللغة والمكان، التي تراوحت بين الاستلاب والاسترجاع ضمن سياسة ثقافية استعمارية ممنهجة، إعادة كتابة التاريخ، النكبة، والمجازر، الاهتمام بقضايا الشتات والاعتراق والنفي، كتيّمت سرديّة فاعلة، وعليه هل استطاعت الرواية الفلسطينية أن تحمل مشعل المقاومة الثقافية في فلسطين، وهل حققت وجودها الثقافي وتمير مشروعها من خلال إعادة الإحياء والتفنيد، وما هي الآليات السردية التي ساعدت في تأهيل خطاب المقاومة لمواجهة الخطاب الإمبريالي؟.

❖ فاعلية رواية المقاومة الفلسطينية

ظهرت الرواية الفلسطينية في أقصى الظروف الحالكة مما يفسر المظهر الثقافي بأكمله في فلسطين الذي عانى من الاضطراب ومحاولة التلاشي والتغيب، إلا أنها ظلت تصحح طريقها بمكابدة المعاناة الملقاة عليها، وتقديم موضوعات تُبرز كوجه من أوجه المقاومة الثقافية التي تطرح أهمية قصوى ليست أبداً أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها، وبالتالي فإن رصدها واستقصاءها وكشف أعماقها تظل ضرورة لا غنى عنها لفهم الأرض التي ترتكز عليها بنادق الكفاح المسلح، ولأنها كفاعل منتج في الحقل الثقافي يسمح بخلق مادة مضادة، ملموسة، تقاوم خطابات التزييف قد لاقت بعد سنين عجاف يراد بها - النضج - مكانتها في الأدب الفلسطيني خاصة والأدب العربي عموماً وحتى العالمي، لذا يمكننا تعريف رواية المقاومة

الفلسطينية على أنها سرديات نضالية تتوجه بكل وسائلها الدفاعية لبسط الحياة تحت ظرف الاحتلال بشكل فني، تعجى من وحي المعاناة والتشريد، تتبنى مختلف القضايا المصيرية للشعوب؛ تعد قوة تعبيرية مؤثرة حطمت أساطير القوى الاستعمارية وفضحتها ورفعت معنويات الشعوب الراضخة تحت الاحتلال والعنف والتسلط.

وعليه إن ما يميز الرواية الفلسطينية عن باقي الخطابات الروائية العربية أنها نمت في ظروف خاصة تحتمت عليها إنتاج ذو خصوصية، فقد فرضت ضرورة الالتفات الجاد إليها بوصفها نمطاً أدبياً له خصوصيته وأيديولوجيته، إذ أفرزت الحالة الثقافية المتطورة نتيجة للأحداث والواقع الذي يعيشه الإنسان الفلسطيني عدداً من النصوص الروائية ذات خصوصية متميزة، والمتتبع لحركة الرواية الفلسطينية المعاصرة، يرى أنها قطعت شوطاً مهماً في مجاراتها لأساليب الكتابة الروائية الحديثة، حيث تستخدم تقنيات سردية متعددة، وأساليب متنوعة في هذا المجال، مما أسهم في ظهورها على الرغم من الظروف السياسية والثقافية الصعبة، ظهوراً تدريجياً فرض تلاحم ثقافي جماعي موجه للالتزام بقضية العصر، فقد واكبت الرواية الفلسطينية أحداث احتلال الأرض 1948، ومختلف أحداث التهجير والمعاناة التي شكلت ذاكرة عصية عن النسيان لدى كل كاتب روائي فلسطيني، فالغالبية الساحقة من أدباء المقاومة في فلسطين المحتلة يمدون التزامهم إلى ما هو أبعد من الحدود الفنية إنهم منتسبون فعلاً إلى الحركة الوطنية بصورة أو بأخرى ويناضلون من خلال تنظيماتها ويزدقون في سبيلها؛ نتائج سياسة القمع الإسرائيلية التي أسرت وعذبت ونفت الكثير من الكتاب بفعل دورهم القوي في إنتاج سردية مضادة لما يروجه الاحتلال من بروباغندا ممنهجة، ومن بين الكتاب نجد "غسان الكنفاني" الذي كشف من خلال رواياته عن وعي غير مسبوق للأحداث التي لم يعاصرها والتي عاصرها والتي قام باستشرافها مؤكداً عن ضرورة بيان الهوية الفلسطينية وثقافتها وذاكرتها، نجد كذلك "إميل حبيبي" الذي عبر عن المفارقة الفلسطينية في روايته الشهيرة "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل"، "إبراهيم نصر الله" في مشروعه "الملهة الفلسطينية" الذي يؤرخ لمحطات النكبة والنكسة والمقاومة. كما ساهم كتاب مثل "جبرا إبراهيم جبرا"، و"جمال ناجي"، و"وليد الشرفا"، ضمن نخبة واسعة من الأدباء، في توظيف الأدب كأداة توثيق ومساءلة ورفض، ما جعل الرواية الفلسطينية رافداً أساسياً في نحت الوعي الجماعي، والدفاع عن الوجود في وجه النفي والطمس.

والمُلاحظ في رواية المقاومة أنها تنتج أفعال داخلية وخارجية، تقدم من خلالها وعياً يساهم في فاعليتها، يتوجه الفعل الداخلي من خلال الكتابة من الداخل أو من الموقع، وقائع تحدث مشاهدة، تُروى بشكل عيني، أو عاشها وعاصرها الروائي، وباختلاف هذه الوقائع والأحداث، يقدمها الروائي لصياغة الموروث الفلسطيني المفعم بالذاكرة الجمعية، وأما ما تطرحه خارجاً هو تمكنها من إثارة الوعي في الداخل الفلسطيني وخارجه، تبتغي منه مجابة الطمس وطرح خطابات الأصلية في مقابل الخطابات المزيفة، مما يمنحها القدرة على أن تكون فاعلة في إعادة تشكيل الوعي الجمعي الفلسطيني.

تبنى رواية المقاومة فعل المقاومة بأشكاله المتعددة بعد أن أكدنا على جوهر الرواية الذي يؤسس لقيمة المقاومة كفعل لاستمرارية الحكي، مما يُبين أهمية السرد كجوهر وقيمة في الوجود الإنساني ثم التزامه بفعل المقاومة كمعادل موضوعي يغذي آليات التخيل، فهذا الأخير مرتبط بقيمة الحكاية، فقد راهنت عليها الرواية باعتبارها أداة لإعادة تأهيل الوجود الفلسطيني بإعلاء صوت الأرض المجروح وإزالة الغبار عن ذاكرة مسروقة؛ ثم إن السرد قد وجد في هذه التجربة وتداعياتها مادة خصبة أصبحت جزءاً حياً في العوالم التخيلية للرواية العربية؛ مما يعني أن السرد الفلسطيني قد تبنى صوت المظلومين وسرد حكايتهم في عوالم متخيلة مستلة من واقع معاش، فالسرد اتخذ أشكالاً مختلفة من المقاومة في الرواية الفلسطينية من بينها: سرد للمقاومة المسلحة في الرواية والتي يكيّفها الكاتب لتصوير الكفاح المسلح الذي يخوضه المقاومون داخل الأرض المقدسة؛ تجسيداً للبعد النضالي الذي تخوضه الشعوب ضد مستعمراتها، نجد كذلك المقاومة الوجودية والتي تتمثل في نقل حياة الناس وتجاربهم الصعبة، كهدم البيوت والتهجير وتصوير الحياة في الخيمات، فالإصرار على الحياة يجسد فعل مقاوم على الرغم من التنكيل. وقد مُثلت كل هذه الأشكال في صيغ وعناصر وآليات سردية، بكثافة دلالية، لتشكيل مادة متخيلة تُعزز الواقع وتنقله بصورة فنية للعالم.

◆ نسق التزييف في السرد المضاد

- تقوم الرواية الفلسطينية على تفعيل قيمة الذاكرة؛ من خلال إثباتها عن طريق الحكاية ودحض ما دونها؛ وقد شكّل التركيز على هذه القيمة أدباً موصولاً بحكاية شعب

تجسدت في الواقع، وقد تمكن الروائي من الإتيان بها وتذويها في عناصر سردية للتأكيد عن الالتزام بالتوثيق لا كمؤرخ وإنما بتشكيل في يقارب الواقع بشيء من الخيال، سلط الضوء على أكثر المحطات وجعاً في الذاكرة، لأن الصراع في فلسطين كان صراعاً على الذاكرة، والرموز، والتاريخ، بقدر ما هو صراع على الأرض والسيادة، في مواجهة آلة استعمارية تعمل منذ أكثر من مئة عام على التطهير العرقي والثقافي لنقلها وتناقلها في الأوساط الفنية والشعبوية وحتى السياسية، لتشكيل مقاومة رمزية تقف على حدود الحقيقة تقاوم النسيان وتقدمها كأدب راقٍ للأجيال الجديدة، ترفض عبر الكلمة نسقية التزييف التي تتوالد بكثرة فيما "يسمى بالرواية الصهيونية التي لا تضخم الحقائق وتنفخها بالمبالغة ولكنها تخترعها أيضاً لتبرير وجود منعدم، تأسس على اختراع حقائق غير موجودة، تعتمد على استهداف العقل الشعبي الفلسطيني، والعقول الغربية التي تميل إليها، وكسب تعاطفها بمبرراتها التي تتخذ من الإنسانية كبداً، وسرد أحداث يُراد بها الاقتراب من الحقيقة الموضوعية، لذا فإن دفاع الكاتب اليهودي عن قضية لا موضوعية لا يمكن إلا أن يتسم بأسلوب لا موضوعي، هذا ما يفسر التناقضات التي يسقط فيها الكاتب اليهودي عبر عمله الروائي.

تستمد الرواية الصهيونية قدرتها على الإنتاج السردية من قدرتها على الخلق والاختراق؛ يمثل الخلق في تمكّنها من إنتاج موضوعات لا تعتمد على قوة الحقيقة وتجسدها في الواقع؛ وإنما في قوة انتشارها واعتمادها على الاختراق، أي تفشيها في الداخل الفلسطيني والعالم العربي والغربي؛ مما يؤكد انتشار الرواية الصهيونية في أوروبا، يعتمد هذا الاختراق على التماس التعاطف داخل السرد من خلال تبيان الإنسان اليهودي على أنه إنسان يرحل للسلام دائماً وفي معظم رواياته يظهر فيها على أنه مظلوم وضحية، ثم على توفير الوسائل الإعلامية اللازمة لتبرير الرواية وانتشارها في أكثر بقاع العالم، وتعتبر الرواية الصهيونية جزء لا يتجزأ من منظومة كاملة تكيفت مع الصراع من خلال تطوير ميكانيزمات نفسية واجتماعية، وتتكون هذه الميكانيزمات من "ذاكرة جماعية" تتعلق بالماضي وترتكز إلى حيثيات الحاضر "وأخلاقيات نزاعية" أو ما يطلق عليه "روح الشعب" وهي مميزات ذهنية نفسية سلوكية متعلقة بجميع النواحي الدينية الثقافية والتربوية؛ لقد طورت هذه الميكانيزمات لدى الأفراد والمجتمع مشاعر قوية مؤداها أنهم ضحايا لأعمال عنف مستمرة، كما ساهمت في تطوير الكراهية والخوف

والغضب اتجاه العرب، حيث تكرر هذه المشاعر في تبرير الأعمال التي يقومون بها أو الخطوات التي يتخذونها اتجاه الآخر بما في ذلك مواصلة الصراع. وقد أكدت "إيمان نحاس" أن هذه المكانزمات هي جزء من منظومة شاملة اعتمدت على ثنائي عقائد منها:

أ- الإيمان بصدقية وشرعية أهدافهم:

قد تلخصت في كونها اختراع لحقيقة مؤسسة مسبقاً قد هيمنت على العقلية اليهودية لتبرير أفعالهم، وتبدى في كونها أيديولوجيا صهيونية تعتمد على الرجوع إلى بلادهم الأصلية بعد 2000 عام من الشتات من أجل إعادة إقامة دولتهم، حيث زودت هذه الأيديولوجيا اليهود ليس فقط بالهدف بل بأساطيره ومبرراته وصياغاته الرمزية والروحانية، فيعرضون خطاباً تاريخياً دينياً، وجودياً، سياسياً، اجتماعياً، ثقافياً، لتبرير وجودهم في فلسطين، فلا يمكن للاختراق إلا أن يُزود بأشكال خطابية متنوعة حتى يحقق وجوده المزعوم في عقول متبنيها، وما هو مطروح في الروايات الصهيونية يؤكد هذه الحقيقة من خلال بسطها في عوالم متخيلة، تحاول فرض بنياتها الداخلية حتى تحقق انتشارها.

ب- إهانة الخصم وإنكار هويته:

وتجلى هذه القاعدة في العقلية اليهودية لتبرير أهدافهم "بدحض الادعاءات الفلسطينية وزعموا أنه لم يكن هناك الكثير من السكان في أرض إسرائيل وأنكروا الهوية الوطنية الفلسطينية لاستبدالها بالهوية اليهودية، ولا يحصل ذلك إلا بإعطاء ادعاءاتهم شيئاً من الحقيقة لتصديقها، عبر إنزال الوهم منزلة الواقع، وتبعاً لذلك استطاعوا أن يمسكوا بزمام الأرض والذاكرة "فند عام 1948، انتهجت إسرائيل سياسة محو الهوية الفلسطينية من خلال الاستيلاء، والتدمير، وإعادة تشكيل الرموز الثقافية والتاريخية، وذلك في إطار حملة أوسع تُعرف بـ "ميموريسايد" "إبادة الذاكرة"، أي الإلغاء المتعمد للذاكرة الجمعية لشعب بأكمله. وشملت هذه الحملة تدميراً مادياً ومجازراً في مئات القرى والبلدات، من بينها "الطنطورة"، و"القسطل"، و"دير ياسين"، وتهجيراً قسرياً واسعاً. ومن ثم قامت قوات الاحتلال بإنشاء مستعمرات مكان هذه القرى والبلدات، وأعطيت أسماء عبرية، ولم يتوقف الأمر عند التدمير

والاستيلاء والتهجير بل باختلاس التراث اللامادي الفلسطيني وتحويله على أنه تراث إسرائيلي بحث؛ وتدمير التراث الثقافي وملاحقة ممثليه.

تبياناً لذلك، تبنّت الرواية الفلسطينية على الرغم من المحاصرة والتقييد، محاولة حماية التراث الفلسطيني بشتى أنواعه عبر إلقاء الضوء عليه وتصويره بمنطق الحكاية؛ مما يعني مجابهة سرديات التزييف، التي اعتمدتها إسرائيل في حق الأرض والعرض والذاكرة والهوية، فقد تمكنت من الولوج إلى عمق الحكاية بسردها عبر اللغة، والغوص في أعماق الوجود الفلسطيني بالإنسان المنهك جراء الإبادة، والمكان التي اعترته موجات الحو والاندثار، والذاكرة المغيبة التي سُجلت في كل روح مباداة، وبهذا تتمثل الرواية الفلسطينية كوثيقة تاريخية متخيلة تستعيد التجربة الفلسطينية بكل تجلياتها.

❖ السردية الفلسطينية كذاكرة جمعية:

1. ترسيخ النضال الفلسطيني:

كشفت رواية "الشوك والقرنفل" لصاحبها الشهيد والمناضل "يحيى السنوار"، عن قدرتها التوثيقية في رحم السرد، والتي اختار فيها الكاتب السرد الروائي خصيصاً لتستوعب حجم التوثيق الذي عاد به إلى أيام النكبة، معتمداً في سرده على ذكر معظم التحولات والأحداث في الداخل الفلسطيني "الضفة الغربية"، و"غزة" والقدس كقوله "في الشهر الأول لانتفاضة الأقصى التي انفجرت إثر زيارة شارون للمسجد الأقصى في الثامن والعشرين من سبتمبر من العام ألفين، أطلقت قوات الاحتلال على المتظاهرين الفلسطينيين في غزة والضفة قرابة مليون رصاصة، والخارج الفلسطيني الأردن، سوريا ولبنان كحادثة الحرب الأهلية "كانت الحرب الأهلية في لبنان قد تفجرت في تلك الفترة، وظلت متأججة خلال الثمانينات، وبدأ يشتد أزرها وأصبح الفلسطينيون في لبنان جزءاً مؤثراً متأثراً بها، أخبار الحرب من لبنان كانت تفعل فعلها في الأراضي المحتلة... فالشعب الفلسطيني قد تشنت مرتين؛ الأولى سنة 1948، والثانية نكسة 1967، الأمر الذي أدى إلى انقسام العديد من العائلات، يكون نصف العائلات في مخيمات الضفة، ونصفها الآخر في لبنان.

وظف الروائي قدرته المجاجية في الحوار لصالح أهم القضايا العالقة في ذهن كل إنسان عربي مهتم بالقضية، بين صوتين روائيين من رحم المعاناة؛ أحدهما يبين قيمة المفاوضات السلمية كسبيل للتحرير، والآخر يؤكد على أن ما أخذ بالقوة يسترجع إلا بالقوة، فقد أظهر الروائي بوضوح أن التحرير الحقيقي لا يمكن أن يحدث دون مقاومة فعّالة فحمود أحد أبطال الرواية، الذي يرى في مفاوضات أوسلو بدايةً محتملة للتحرير، كان يعبر عن ذلك الأمل إلا أن تلك الرؤية لاقت معارضة شديدة من قبل بعض أبطال الرواية "حسن" من أبناء حركة حماس، الذين اعتبروا المفاوضات تفريطاً في حقوق وتطلّعات الشعب الفلسطيني نحو التحرير الكامل.

لم يقتصر الروائي في تقديم رؤية عامة عن تحولات القضية الفلسطينية فقط، وإنما رصد تطور المقاومة المسلحة جنباً إلى جنب من الحجارة والغضب إلى حمل السلاح واقتناص جند الاحتلال، وذلك تنفيذاً للمقولات المروجة أن الفلسطيني راضٍ للمحتل، فعلى الرغم من صعوبة التأقلم مع الوضع المعيشي والاقتصادي بعد النكبة، إلا أن هناك من رفض التهجير وظل مكانه، بدون بيت ولا معيل؛ فإرادة الفلسطيني ورغبته في تحرير أرضه جعلت يأنف عن الحياة ويكرس ما تبقى من عمره في سبيل تحريره، فلا شغف له في الحياة غير رؤية وطنه محرراً، فقد تصاعدت أصوات المقاومين إلى أن انتهى الأمر من الوعي إلى تجسيد صورة للالتفاف الجماعي في خلايا خاصة سرية ترمي إلى استرجاع الحقوق بالقوة، سواء كان ذلك في صورة فردية أم جماعية، والمشهد الذي بين أيدينا يؤكد بروز المقاومة الفردية التي يتولاها أحد المقاومين في الشارع الغزاوي "من بين الجمع تقدم "محمد" أحد الشبان الذين هربوا من سجن غزة قبل أسابيع، وحين وصل للسيارة سحب محمد مسدسه وصوّبه إلى رأس قائد الشرطة وقلبه، وأطلق عليه عدة طلقات ثم اختفى بين الناس... قوات كبيرة من الجيش حاصرت المكان"، فالعائلات الفلسطينية تسعى جاهدة لإعطاء أولادها وفلذات أكبادها إلى الالتحاق بركب المقاومين، فذلك شرف لا يفوقه شرف.

ومن بين الأحداث المؤثرة على الشارع الفلسطيني والتي تمكن الروائي من تقديم صورة شاملة عنها هي تأثير الاستيطان على الحرم الإبراهيمي ومحاولات اقتحام المسجد الأقصى، موضعاً تفاصيل النضال المستمر للشعب الفلسطيني، وبذلك يقدم الراوي صورة حيّة للواقع الفلسطيني على مرّ عدة عقود، في ظل جهاده المبارك للمحتل سعيّاً للتحرير، يقول في وصف

مشهد الغدر "وينما جميع المصلين سُجّداً بين يدي الله يتسلل أحد المستوطنين طويل القامة بلحيته الشعثاء ويقف على باب المسجد يرفع بندقيته ويبدأ بإطلاق النار على رؤوس وظهور المصلين وهم سُجّداً بين يد الله تعالى، ويبدل الخزنة مرة ومرتين وثلاثاً، وصوت الرصاص يتعالى والعشرات من المصلين يلقون ربهم، وهم سجد ...". فالمشهد الروائي الذي بين أيدينا يوضح يد الاستيطان والمستوطنين الممدودة إلى كل مدينة ومسجد وحارة وبيت، تكشف عن إجرامها الذي استباح دماء الأبرياء بحجة الأوهام التي غرست في صدورهم منذ الطفولة فأصبحوا يلوحون بكل حقد أمام كل من يقف أمامهم وأمام مخططاتهم، فراحوا يعرّبون ويقتلون ويسرقون البيوت، تحت حماية جند الكيان يقول "ازدادت حركة الاستيطان اليهودي وتصادت في كل أنحاء الضفة الغربية، فأينما أدت وجهك وجدت أرضاً تصادر ومستوطنات تنشأ ومستوطنين يهود يسكنون الأرض ويبدأون في التعامل معها على أنها أرضهم".

اعتمدت سردية "السوار" على الوصف كونه يمثل أحد عناصر السرد، لأنه يؤكد على قيمة الواقعية والتوثيق، فالروائي الناجح هو إنسان أدرك ذاته وعالمه وناسه وأحسن الإنصات إلى أسرار نبض التفاعل بين عناصره المتداخلة، ومع أن الروائي يستلهم أغلب سيولته الحكائية من تفاصيل الواقع الذي نعيشه، وينهل معظم مادته من العالم المحيط به؛ فإنه يعيد تشكيل هذا العالم وفقاً لعمليات مركبة تقوم بها المصورة والذاكرة والخيالة، فالمزج بين إبداع الكاتب في التحوير والخلق وبين واقعية الأمكنة والأشياء أنتجت شكلاً قابلاً للواقعية، بحيث يتم إيهام القارئ بواقعيته، وعلى الرغم من كون الرواية تميل إلى الشكل السيري، إلا أن الروائي يعتمد على التخيل في تحوير أفكاره ومادته، والوصف أحد ممارسات الروائي في أقبية السرد لإيقاع القارئ في شبك الواقعية فوصف أمكنة البلد من الضفة وغزة إلى الخليل ورام الله، إلى الخيمات "نخيم الشاطئ" وإلى البيوت ومراكز الرعاية والمدارس والسجون وغيرها، والإتيان بعادات المناطق ولهجاتها واختلافها ومدارسها وجامعاتها وحدودها، يؤكد على معرفة الروائي بتفاصيل الأمكنة لخلق مادة نوعية جديدة قريبة من رحم الواقع، يصف أحمد بطل الرواية وراويها العليم السجن قائلاً: "قسم التحقيق في سجن غزة كان يسمى (المسلخ) لما يمارس فيه من تعذيب وقهر وسلخ لمن يدخلونه، وهو عبارة عن مبنى فيه ممر يتوسط المكان، عرضه حوالي أربعة أمتار وطوله عشرون متراً ... على جانبيه تفتح أبواب غرف مختلفة الحجم يتم فيها

التحقيق، في هذا الممر الطويل يتم إجلال المعتقلين على الأرض أو إيقافهم ووجوههم إلى الجدار وقد غطيت رؤوسهم بأكياس من القماش السميك حتى الأكف وربطت أيدهم خلف ظهورهم".

2. الشعب المقاوم: هوية ووجود:

ارتكزت رواية الشوك والقرنفل على ممارسة خيط الحكى المتصل على طول السرد، الذي يبقى القارئ في يقظة تامة حتى لا تسقط منه تفاصيل الحكاية، فسردية السنوار تكاد تخلو تماماً من شعرية السرد، أو تشكيل خطاب لغوي عال يعتمد على لغة الحلم، فقد بقت رابضة في حيز القص المتتالي الذي يهدف إلى نقل القارئ للعالم الذي يكاد يختفي جراء السرديات المضادة التي تنتج في مراض المحتل، لهذا استطاع الروائي أن يواكب أكثر المراحل والمحطات وجعاً في التاريخ الفلسطيني في قالب حكائي ينقل الأوجاع والآلام والمعاناة اليومية التي يمر بها الفلسطيني في دياره ومخيماته، هي حفر في الذاكرة الموحجة التي عانت من سنة 1948، وعليه فالمدونة السردية الفلسطينية بشكل خاص، قامت بنفسها كرواية مضادة تدفع القارئ إلى اكتشاف ما سعت الرواية الصهيونية إلى ترسيخه في العقول الأجنبية على الأخص، وقدرة هذه المدونة على تغيير النظرة السائدة حول النكبة، فدور الرواية لا يقل أهمية عما أحدثته الكتابات التاريخية الفلسطينية والعربية حول النكبة، والتي سبقت عمل المؤرخين الإسرائيليين الجدد في فضح الرواية الصهيونية للنكبة، وتبع الحياة اليومية في السرد وما ينجم عنها من أحداث همجية استطاعت أن تفضح سياسة المستعمر اتجاه الأرض المحتلة، لأنها وكما أردفنا سابقاً تعتبر كشكل من أشكال التوثيق، غير أن التوثيق الذي بين أيدينا يمثل توثيقاً فنياً يعتمد على الأدبية في اختراق أذواق القراء يقول أحمد في مشهد هدم البيوت في المخيمات "ثم سلموا كل صاحب بيت من البيوت التي وضعت العلامات عليها إخطارات بأنه سيتم هدم البيوت التي وضعت على جدرانها حرف إكس الكبيرة مع كل إخطار يتم تسليمه لأحد أصحاب البيوت تبدأ الصرخات والشتائم والعويل، فإلى أين يذهب هؤلاء الناس بأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم؟ سيصبحون في الشارع من جديد"، وهكذا لا تخلو يوميات الفلسطيني من أحداث تتكرر ليلاً ونهاراً، مضايقات الاحتلال التي تتمثل في الاقتحامات، والاغتيالات، والتعرض للضرب والإهانات، ناهيك عن أسر الرجال والنساء، ولا يكتفي المحتل في زرع

الخوف في الشارع الفلسطيني فقط، فقد حدثتنا رواية الشوك والقرنفل عن القهر من شدة الحاجة والجوع والفاقة، من خلال التضيق الذي يمارسه الاحتلال، وتراه يعلن حظر التجوال ليلاً ونهاراً مما يسبب أزمة خانقة نتيجة قلة ذات اليد يقول: واستمر فرض حظر التجول أسبوعاً كاملاً عشنا فيه على (البيصارة والعدس والفل والزيتون).

يسعى الروائي من خلال تجسيد يوميات الفلسطيني في مواجهته للاحتلال أولاً لحماية الذاكرة الفلسطينية من الزوال والتشوية، ثم تبيان ما يتميز به الشعب الفلسطيني من قوة وعزيمة وإرادة وصبر يجعلوا منه كائناً غير قابل للخنوع، ومن الصعب كثيراً سقوطه، فهم يستمدون قوتهم من إيمانهم العميق بأن أرض الأنبياء هي أرض مقدسة تغرس حبها في كل مولود فلسطيني، فقد تشكلت حضورها القوي ليس في الداخل الفلسطيني فقط بل في كل ضمير عربي حي، يعرف جيداً أن فلسطين للفلسطينيين فقط، وأن الاحتلال زائل مهما طال عمره، لهذا فالصبر عن الأوجاع اليومية - عذابات وإبادة - هو نيل لشهادة أو تحرير قادم، وما هذه الأبعاد الإيمانية إلا تشكيل لهوية الفلسطيني، إذ أن لكل شعب من الشعوب خصائصه المميزة له التي تجعل منه شعباً في مقابل شعب آخر، وهي ميزة تنطبق على الشعب العربي الفلسطيني مثلها تنطبق على أي شعب آخر، فإن للفلسطينيين خصوصية تشكل قيمة مضافة لهويتهم الوطنية، وتتمثل في أن تبلورها ارتبط بمواجهة نكبة تعرضوا لها من طرف مشروع للغزو الأجنبي استهدفهم في وجودهم الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحضاري والإنساني بشكل عام، هذه الهوية تشكلت في خضم صراع مرير خاضه هذا الشعب لإثبات وجوده في هذه المعرفة القاسية وغير المتكافئة، فالأحداث الكبرى كما العذابات اليومية ساهمت في تشكيل الهوية التي تخرج عن مقوماتها الأصلية إلى ما هو أبعد؛ فاللغة والثقافة والذاكرة والأرض وغيرها، تبني أسس الهوية وتقويها، لكن في أرض فلسطين يتبدى الأمر خلاف ذلك لما نجده من قوة وثبات ومقاومة وارتباط قوي موصول بالأرض والعقيدة "منذ هذه اللحظة بدأنا نفهم جيداً أن للصراع وجهاً آخر غير ما كنا نعي ونذكر من قبل، فالمسألة ليست فقط مسألة أرض وشعب طرد من هذه الأرض، وإنما هي معركة عقيدة ودين، معركة حضارة وتاريخ ووجود".

تبياناً لذلك، لقد تعززت الهوية في فلسطين بارتباطها بالمقاومة التي عرفتها فلسطين منذ زرع أول مستوطنة يهودية فيها عام 1882، ومروراً بثرواتها المعروفة في النصف الأول من

القرن العشرين وانتهاء بأهم إنجاز للثورة الفلسطينية المعاصرة في ستينات ذات القرن وبرزت في خضم هذه الثورة التي أكدت الوجود الواقعي للشعب الفلسطيني في مواجهة إرادة المشروع الصهيوني الإمبريالي الدولي التي أراد أن تجعل من وطنه أرضاً خلاء بلا شعب ليتم تسليمها لشعب افتراضي ليس له أرض".

لم تخلو رواية "السنوار" من استغلال السرد وأبنيته لتمرير مكونات الثقافة الفلسطينية المختلفة، فالرواية في نهاية الأمر هي ترسيخ لذاكرة وإثبات لهوية، لأجل ذلك تسعى الرواية لطرح الممارسات الثقافية المادية واللامادية، للكشف عن حياة شعب بتفاصيله الحياتية، عبر اللغة السردية التي تعد نكزاة ثقافية مرهونة بقيم المجتمع ووعيه، فمن خلالها يمكن للروائي أن يُصيّر الخطاب النصي إلى فعل مقاوم عبر تمرير كل ما يخص التراث والقيم والمعارف والرموز والعلامات الثقافية اللغوية وغير اللغوية، ليشكل مادة ملموسة ذهنياً ترسخ في وعي القارئ أهمية العلامات الثقافية المختلفة في إعادة بناء ما تحاول السرديات المضادة من محوه، ولأن اللغة ذات معنى وحاملة له، قد جعلها الكاتب وسيلة لتمكين حملات الواقع الثقافية من التجلي، لشحنها بدلالات متنوعة، كحاربة التهويد والطمس، فاللغة في الأصل تحمي الذاكرة وتبني الهوية فليس من الممكن أن تكون محايدة، لأنها شكل من أشكال الثقافة.

استطاع "السنوار" أن يعيد للذاكرة والهوية وكل أشكال الثقافة قيمتها عبر لغة السرد، مما شكل نتاجاً يعيد إعادة إحياء رمزيات الوطن من علامات ثقافية وألفاظ وتعابير فلسطينية، نقلها الروائي بخلفياتها وأمكنها ودلالاتها، وما كان من هذا الاستحضار الثقافي إلا أن يعيد فلسطين ومدنها وقراها وألبستها وأطعمتها، وأسماء أحيائها وشهداءها إلى الواجهة، فحقيقة تغييب المكان وثقافته ما هو إلا سياسية محو معتمدة للتهويد والاستيطان، وما تبثه الرواية إلا مجابهة هذا التهويد بالسرد يقول عن قرية صورييف قضاء الخليل، وهي قرية فلسطينية مثل كل قرى الوطن، وقعت تحت الاحتلال سنة 1967، ونالها نصيبها من التغريب والتدمير عقاباً على دورها في المقاومة قبيل الاحتلال وفي المعارك التي سبقت 1948، كونها قرية حدودية تقع على الخط الأخضر الفاصل بين الأراضي التي احتلت سنة 1948، وبين الأراضي التي ظلت تحت الحكم الأردني، حتى احتلت سنة 1967. لم يكتف الروائي في ذكر أسماء الأماكن وتواريخها، فقد اعتمد ذكر الأيقونات السياسية والجهادية كياسر عرفات وأحمد ياسين، تذكيراً بتاريخ الجهاد في هذه الأرض.

كما وظف الروائي الأمثال الشعبية والأناشيد الوطنية التي تسطر تراث هذه الأرض وقيمها وعاداتها وتقاليدها "خير خير يا يهود جيش محمد سوف يعود، بسم الله، الله أكبر،... بسم الله قد حانت خير... بالروح بالدم نفديك يا شهيد".

الخاتمة:

- رواية المقاومة الفلسطينية رواية ذات خصوصية شكلاً ومضموناً، تقاوم كل أشكال الاحتلال وسردياته المضادة بإعادة إحياء الذاكرة وبناء الهوية، من خلال الاهتمام بيوميات الإنسان الفلسطيني وعالمه الذي تميزه المعاناة والتهجير والتشريد.
- ظهرت رواية المقاومة تدريجياً، بعد مسيرة طويلة من النضج، واكبت أحداث 1948، وأظهرت شكلاً من أشكال التلاحم الثقافي والإنساني في نقلها لمعاناة الإنسان الفلسطيني، ودحض أكاذيب الرواية الصهيونية.
- أشهر من كتبوا في رواية المقاومة: غسان كنفاني، وإميل حبيبي في رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، وإبراهيم نصر الله في مشروعه الملهة الفلسطينية وكل من جبرا خليل جبرا وجمال ناجي ووليد الشرفا.
- تتميز رواية المقاومة بقصدية أفعالها الداخلية والخارجية المنتجة، فتبتدئ أفعالها الداخلية منها في أنها تروى بشكل عيني ومباشر وحقيقي وواقعي، هي معاناة مصورة بالسرد، أما فعلها الخارجي فيتركز في كونه آلية لمجابهة الطمس ودحض الادعاءات المشبوهة.
- الرواية الصهيونية لا تضخم الحقائق وتنفخها بالمبالغة فقط، وإنما تخترعها أيضاً لمحاولة تبرير وجود منعدم يحاول الخلق والاختراق، عبر خلق أكاذيب لا صلة لها بالتاريخ ولا الواقع، ودس هذه الحقائق عبر وسائل الإعلام الغربية خاصة لكسب تعاطف العالم.
- من أهم عقائدهم الإيمان بصدقية وشرعية أهدافهم التي تتمثل في تصديق ما يروجونه كذباً مثل الرجوع إلى بلادهم الأصلية بعد 2000 عام من الشتات من أجل إقامة دولتهم.

- تتمثل العقيدة الأخرى في إنكار وجود الآخر عبر إهانته وإسقاط هويته من خلال تأكيد حقيقة أن الأرض بدون شعب.
- رواية الشوك والقرنفل من الروايات الفلسطينية التي أخذت على عاتقها حماية الذاكرة الفلسطينية، عبر تجسيد الحكاية وآلياتها الأدبية والثقافية.
- يمثل السرد في رواية "السنوار" وعاءاً حاملاً لذاكرة الفلسطيني التي تأبى الاندثار، فقد حطم السرد بأشكاله الفنية كل أسوار التوثيق بمعادل في أدبي.
- ركزت رواية الشوك والقرنفل على ترسيخ النضال الفلسطيني من التحدث على الأحداث الكبرى وتاريخ تشكيل المقاومة وصراعها مع الاحتلال، كذلك كتب السنوار عن غطرسة المستوطنين في محاولة انتزاع أراضي الفلسطينيين من أيديهم.
- وظف "السنوار" كل أشكال المعاناة اليومية التي مرت بالإنسان الفلسطيني من تهجير وتشريد، ولجوء وقتل.

الهوامش وقائمة المصادر والمراجع:

- 1- غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، 1967، ص9.
- 2- رياض خليف، ملامح السرد المقاوم في نماذج من الرواية العربية، مجلة تنوير ونقد، العدد التاسع عشر، السنة الخامسة، جامعة قيروان، تونس، مارس 2024.
- 3- حسين قسيم عبيدات، خصوصية الرواية الفلسطينية، مجلة بحوث التربية النوعية، المجلد 1، العدد 1، 2003، جامعة جرش، المملكة الأردنية الهاشمية، ص 61، الرابط: https://mbse.journals.ekb.eg/article_141383.html
- 4- سليم فهمي، المقاومة الثقافية، معركة الذاكرة والهوية الفلسطينية، مركز الخليج للأبحاث، جانفي 2025، ص 18.
- 5- عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي، السرد، الإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، ص 282.
- 6- سليم فهمي، المقاومة الثقافية، مرجع سابق، ص 03.
- 7- غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني، ص 119.

8- إيمان نحاس، السرد الإسرائيلي للنكبة وبناء الهوية الجماعية بعد 1948، وقائع ندوة خاصة بالتعاون بين المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، مدار ومراكز خليل السكاكيني، ص 63.

9- يحيى السنوار، الشوك والقرنفل، دار الوعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرويبة، الجزائر، 2024، ص 451.

10- علاء أبو بكر، الشوك والقرنفل ملحمة النضال الفلسطيني، تاريخ المشاهدة 2025/08/30، الرابط: <https://ruyaa.cc/Page/126499/#:~:text=%D9%81%D9%8A>

11- إبراهيم الحجري، الرواية العربية الجديدة السرد وتشكل القيم، دار الناي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ص 115.

12- نفري صالح، النكبة والرواية وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية، تاريخ المشاهدة، 2025/08/31، الرابط: <https://www.aljadeedmagazine.com/%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%83%D8%A8%D8%A9>

13- عبد الفتاح القلقلي، أحمد أبو غوش، تطور الهوية الوطنية الفلسطينية، تاريخ المشاهدة: 2025/09/10، الرابط: <https://badil.org/ar/publications/haq-al-awda/issues/items/2669.html>

المصادر والمراجع العامة:

• إبراهيم الحجري، الرواية العربية الجديدة السرد وتشكل القيم، دار الناي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.

• إبراهيم عبد الله، التخيل التاريخي، السرد، الإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية.

• سليم فهمي، المقاومة الثقافية، معركة الذاكرة والهوية الفلسطينية، مركز الخليج للأبحاث، جانفي 2025.

• غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، 1967.

• يحيى السنوار، الشوك والقرنفل، دار الوعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرويبة، الجزائر، 2024.

المقالات والمجلات:

• رياض خليف، ملاح السرد المقاوم في نماذج من الرواية العربية، مجلة تنوير ونقد، العدد التاسع عشر، السنة الخامسة، جامعة قيروان، تونس، مارس 2024.

• إيمان نحاس، السرد الإسرائيلي للنكبة وبناء الهوية الجماعية بعد 1948، وقائع ندوة خاصة بالتعاون بين المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، مدار ومراكز خليل السكاكيني.